الهيمنة اللغوية على الثقافة
قراءة في كتاب "المرأة واللغة" لعبد الله الغذامي

Linguistic domination over culture
Reading in the book women and language by Abdullah al-ghadami

محمد بن سباع*
جامعة قسنطينة2 عبد الحميد مهري
moh.philo@yahoo.fr

تاريخ الوصول 2022. 04. 12 تاريخ القبول 2022. 06. 11 تاريخ النشر 2022. 07. 15

ملخص البحث:

إننا نسعى في هذه الدراسة إلى التعرف على ظاهرة الهيمنة اللغوية على الثقافة من خلال كتاب "المرأة واللغة" للمفكر السعودي "عبد الله الغذامي"، وتكمن أهمية بحثنا في أنه يحاول أن يُعَرِّفَ بمضمون أحد أهم الكتب التي سَلَّطَت الضوء على ظاهرة "الهيمنة الذكورية" من خلال اللغة التي يمتلكها الرجل ويستعملها كوسيلة للسيطرة على المرأة، ألا وهو كتاب "المرأة واللغة". إن عبد الله الغذامي هو أول مفكر عربي اهتم بشكل موسع بهذه القضية بصفة خاصة وبكل ما يندرج في إطار الفلسفة النسوية والنقد الثقافي بصفة عامة. لذا، فإن المشكلة الرئيسة لبحثنا هذا تتعلق بالهيمنة اللغوية على الثقافة أي بتحكم الرجل في اللغة وحرمان المرأة منها، إذ نجد أن الغذامي في كتابه هذا يحاول أن يتتبع ظهور هذه الظاهرة وتحولاتها مُبَيِّنًا أنه حتى ولو أن المرأة ظلت خاضعة لحرمانها من حقها في اللغة لمدة زمنية طويلة، إلا أنه حدث تحول في الفترة المعاصرة تمثل في إدراكها لضرورة استعادة حقها في اللغة من خلال اقتحامها مجال الكتابة وهذا ما تمثل في ظهور الكتابة النسوية. لقد تبين لنا من خلال هذا البحث أن الرجل هو المتحكم في اللغة وعلى الرغم من محاولة المرأة منافسته في ذلك إلا أن هذه المهمة لم ولن تكون سهلة لأن ألفاظ اللغة صيغت بمنظور ذكوري.

الكلمات المفتاحية: عبد الله الغذامي، الهيمنة الذكورية، الثقافة، اللغة، المرأة.

Abstract:

In this study, we seek to identify the phenomenon of linguistic hegemony over culture through the book "women and language" by the Saudi thinker "Abdullah al-ghadami" through the language that a man possesses and uses as a means of controlling woman, it is the book of "woman and language". "Abdullah al-ghadami" is the first Arab thinker who paid extensive attention to this issue in particular and to everything that falls within the framework of feminist philosophy and cultural criticism in general. Therefore, the man problem of our

* المؤلف المرسل

research is related to the linguistic dominance of culture, with men controlling language and depriving women of it, as we find that al-ghadami in this book tries to trace the emergence of this phenomenon and its transformations, indicating that even it the woman remained subject to being deprived of her right to language for a long period of time, a shift occurred in the contemporary period represented in her realization of the necessity of restoring her right to the language through her intrusion into the field of writing this is what is represented in the emergence of feminist writing. We have found through this research that the man is the master of the language, and despite the woman's attempt to compete with him in that, this task was not and will not be easy because the language's words were formulated with a masculine perspective.
Key words: Abdullah al-ghadami, controlling woman, the culture, the language, woman.

1- مقدمة:

يمكننا التأكيد على أن كتاب "المرأة واللغة" لعبد الله الغذامي من الكتب القليلة والمهمة جِدًا التي تَندَرِجُ في إطار ما يسمى الآن "بالنقد الثقافي"[1] ويمكن تَصنِيفُهُ في إطار أهم مجالات النقد الثقافي والذي هو"الفلسفة النسوية"[2] وكل منهما يمثل راهن الفكر الغربي، لذلك ما يحسب لعبد الله الغذامي هو اهتمامه بدراسة هذه القضايا خصوصا وأنه أول من دعا إلى إدخال النقد الثقافي إلى الفكر العربي وتطبيقه كرؤية نقدية جديدة في دراسة الثقافة العربية، وهنا تكمن أهم الأسباب التي دفعتنا إلى اختيار دراسة هذا الكتاب ومحاولة التعريف بمضمونه وتبيان أهميته على اعتبار أنه يدرس قضية مهمة جدا أصبحت محل نقاش وجدال في الفكر الغربي، وها هي تطرح بجدية وبعمق في الفكر العربي من طرف عبد الله الغذامي؛ ألا وهي ظاهرة "الهيمنة الذكورية" على المرأة، سواء الهيمنة بصفة عامة أو الهيمنة اللغوية بصفة خاصة، وبالتالي يكون السعي إلى تحرير المرأة العربية من هذه الهيمنة التي سُلِّطَت عليها من طرف الثقافة التي تُعطِي الأولوية للرجل على حساب المرأة أو للذكر على حساب الأنثى.

إن من بين الأسباب الأخرى التي جعلتنا نختار دراسة هذا الكتاب، هي أنه يدرس قضية حقوق المرأة من منظور مُغايِر تماما لتلك المواقف التي تدعوا إلى المساواة بين الرجل والمرأة، بما فيها المواقف التي نجدها حتى عند بعض النساء خصوصا الحقوقيات؛ ذلك أن الغذامي يتحدث في هذا الكتاب عن موضوعة لم تنل حظها من الدراسة والاهتمام –إن لم نقل أنها لم تدرس بعد في الفكر العربي– ألا وهي حق المرأة في الكتابة وبالتالي حقها في اللغة، فالكتابة كما تُبَيِّنُ لنا الثقافة العربية كانت ولا تزال مُستَعمَرَةً ذكورية، والرجل وحده من يَتَمَتَّع بالحق في الكتابة وأن المرأة مُلزَمَةٌ بأداء مهمة الحكي وفقط، وليس من حقها مَسْكُ القلم الذي هو مِلكِيَّة خاصة بالرجل لوحده، وقد تَرَتَّبَ عن هذا الوضع اضطهاد المرأة وحِرمَانُهَا من حقها في اللغة، وهذا ما جعل الغذامي يطرح في كتابه "المرأة واللغة" أزمة تَغيِيب المرأة عن اللغة.

إننا نهدف من وراء هذا البحث إلى بمُتَابَعَةِ التَّحَوُّل الذي حدث في مجال الكتابة بدخول المرأة إليه ولو جزئيا اختيار دراسة هذا الكتاب لأنه الوحيد المتخصص في الحديث عن اقتحام المرأة مجالا كان يوصف إلى زمن غير بعيد بأنه اختصاص ذكوري، لكن اليوم أصبح بإمكان المرأة أن تَحمِلَ القلم وتكتب عن أنوثتها مُحاوِلَةً إثبات أن

الكتابة عمل إنساني لا جِنسَ له، وكل إنسان سواء كان رجلا أو امرأة بإمكانه الإبداع والتعبير عن ذاته وعن تجاربه بواسطة الكتابة، وما يُثبِتُ ذلك هو أنه على الرغم من أن وُلُوجَ المرأة ميدان الكتابة جاء مُتَأَخِّرًا، إلا أنها استطاعت أن تُثبِتَ قدرتها وأَحَقِيَّتَها في الكتابة من خلال ما أضافته النساء الكاتبات للمعرفة الإنسانية بكتابتهن عن تجاربهن الحياتية المتميزة وما كتابات "مي زيادة" و"أحلام مستغانمي" و"نوال السعداوي" وغيرهن إلا دليلا على ذلك. أما بالنسبة إلى أهم المناهج التي اعتمدنا عليها في هذا البحث فتمثلت في المنهج التحليلي من خلال عرض وتحليل آراء وأفكار عبد الله الغذامي التي ضمنها كتابه "المرأة واللغة"، وأيضا المنهج النقدي الذي اتبعناه خصوصا في نقدها لمضمون هذا الكتاب وتبيان التناقضات التي وقع فيها الغذامي. أما بالنسبة إلى الإشكالية الرئيسة لهذه الدراسة فيمكن صياغتها على النحو التالي: كيف تحدث الغذامي عن ظاهرة الهيمنة الثقافية على اللغة في كتابه "المرأة واللغة"؟ وما هي الانتقادات الموجهة له؟

2- قراءة موجزة في حياة الكاتِب، من هو عبد الله الغذامي؟

ولد عبد الله محمد الغَذَّامِي في مدينة "عنيزة" قرب الرياض عام 1946م، و قد قال عنه عبد الرحمان إسماعيل وهو صديقه و زميله الذي دَرَسَ معه في المعهد العلمي في ذات المدينة :"كان ذا صوت مسموع في جَنَبَات المعهد، فقد كان شاعرًا ذا مشاركات شعرية ونشاط ثقافي، يعرفه جميع أساتذته الذين جلس أمامهم في مقاعد الدراسة في المعهد"[3]. لقد أصبح هذا الشاعر أكبر نُقَّادِ الشعر ليس في إطار النقد الأدبي، وإنما في إطار النقد الثقافي الذي ارتبط باسم عبد الله الغذامي؛ لأنه قدمه كمشروع جديد في قراءة الأنساق الثقافية العربية؛ حاول أن يبين من خلاله أن هذا الشعر -بما فيه من بلاغة و شِعرِيَّة وإعلاء لِلجمالِي- هو الذي تَسَبَّبَ في السيطرة على الشخصية العربية وكذا الثقافة العربية بكل أنساقها.

لقد كان الغذامي مُفَكِّراً مُتَفَتِّحًا على الفكر الغربي الراهن، ومن أهم الذين تَبَنَّوا فكر ما-بعد الحداثة، و خصوصا تلك الرؤية المنهجية المسماة بـ"التفكيكية"، أو التي أسماها في مشروعه بـ"التشريحية" فكانت إلى جانب "اللسانيات" و"السيميولوجيا" أهم المعارف والمناهج التي حاول الغذامي الاستفادة منها في نقد الأنساق الثقافية العربية، لكنه لم يكن نقدا سلبيا هداما وإنما كان نقدا بناءا هادفا ينطلق من فضح تناقضات الثقافة وكَشفِ ألاعيبها المُضَمرة، يسعى إلى إعادة بناءها نحو ما-بعد الحداثة من خلال مشروع النقد الثقافي. أما بالنسبة إلى أهم المفكرين الغربيين مابعد-الحداثيين الذين تأثر بهم عبد الله الغذامي فنذكر رولان بارث Roland Barth وجاك دريدا Jacques Derrida وغيرهما، ولكن :" حتى ولو كان الغذامي كَوَجهٍ عربي بارز للرُّؤية التشريحية في الفلسفة المعاصرة، إلا أن أهم ما يميزه عن أصحاب هذا المنهج في التفكير هو كونه المثقف العربي المُتَشَبِّثُ بتراثه وتاريخه إلى أبعد حد ممكن"[4].

إن قارئ مؤلفات عبد الله الغذامي سواء المتقدمة منها أو المتأخرة يتبين له تَنَوُّعَ فكر الغذامي، وكذا اهتماماته بين الاطلاع على الفكر الغربي ومحاولة الاستفادة منه، إلى الاشتغال بقضايا الثقافة العربية وهُمُومِها، ونجده

يتحدث عن نفسه في كتابه "الموقف من الحداثة" قائلا: "إنني أدعوا إلى الحوار وأنادي به، ولهذا فإنني أُرَحِّبُ بالاختلاف وأستبشر به؛ لأنه هو الذي يعطي فعاليتنا الثقافية حركتها وتفاعلها، وبدون الحوار مع الأطراف الأخرى تُصابُ بِرَكَتُنَا بالأَسَنِ والعَفَن، وما حَذَّرتُ منه هو نقيض الحوار وهو محاولة إسكات الآخرين، واعتقاد أن ما لدينا صحيح أما الذي عند غيرنا فخطأ. هذه هي صفة الجاهلين، وجئت مُحَذِّرًا منها"[5]. هذا هو الهدف الرئيس من مشروع "النقد الثقافي" عند عبد الله الغذامي الذي تحدث عنه وعن مبادئه في كل مؤلفاته والتي نذكر منها: "النقد الثقافي" و"نقد ثقافي أم نقد أدبي" و"ثقافة الوهم" و"تشريح النص" و"الكتابة ضد الكتابة". هذه بعض مؤلفات الغذامي، إلى جانب العديد من المؤلفات الأخرى التي تجاوز عددها العشرون كتابا.

3- دراسة فصول الكتاب بالتسلسل مع توضيح المنهجية التي اتبعها المؤلف.

في كتابة "المرأة واللغة" يعمل الغذامي على كشف تناقضات الثقافة العربية وفضح ألاعيبها مُعتَبِرًا إِيَّاها بأنها "ثقافة وهم" تقوم على التمييز لا على المساواة؛ لأنها تُكَرِّسُ ظاهرة "الهيمنة الذكورية"' بالتالي فهي ثقافة ذكورية تَبسُطُ هيمنة وتَفَوُّقَ الرجل على المرأة بواسطة اللغة التي اتخذها الرجل وسيلة يقهر من خلالها المرأة ويتحكم فيها من خلال الكتابة، فَيَكتُبُ عنها كما يريدها هو أن تكون لا كما يجب أن تكون في الواقع باعتبارها مساوية له في كل الحقوق، خصوصا منها الحق في اللغة والحق في الكتابة. هكذا، يحاول الغذامي في هذا الكتاب الدفاع عن المرأة ككيان اجتماعي مُعتَمِدًا على عدة مناهج أهمها المنهج التفكيكي الذي طَبَّقَهُ بعض الفلاسفة والمفكرين الغربيين على الثقافة الغربية وخصوصا مع جاك دريدا، لكن الغذامي لم يستخدم مصطلح "التفكيكية" وإنما استخدم مصطلح "التشريحية" والذي يقصد به تشريح نصوص الثقافة العربية وكشف المُضمَرِ فيها، ولكي يوضح لنا أكثر مفهومه للتشريحية وكذا كيفية تطبيقها يقول: "أُسَمِّي منهجي بالنصوصية أو بالنقد الألسني وأسمي الإجراء بالتشريحية، لأن ما نفعله إجرائيا هو ممارسة التشريح فِعلِيًا من أجل الوصول إلى سَبرِ تركيبات النص وأَبنِيَتِهِ الداخلية، ثم نأخذ بتفسير العملية تفسيرًا نُصُوصِيًا يقوم على مَبدَإٍ من تفسير القرءان بالقرءان"[6]. وهو المنهج الذي طَبَّقَهُ في كتاب "المرأة واللغة" على النصوص التي تتحدث عن علاقة المرأة بالرجل من خلال اللغة. كما نجده أحيانا يلجأ إلى آليات التحليل النفسي من خلال حديثه عن موقف الرجل من المرأة ونظرة المرأة إلى الرجل والى نفسها أيضا، وذلك حتى يفهم طبيعة التحولات التي حدثت في العلاقة بين الرجل والمرأة مركزا اهتمامه على ظاهرة "الهيمنة اللغوية".

في مقدمة الكتاب يتحدث الغذامي عن استحواذ الرجل على اللغة وتَحَكُّمِهِ في المرأة من خلالها، وكيف أن الثقافة عملت على تكريس هذه الهيمنة اللغوية الذكورية من خلال تمييزها بين عدة ثنائيات أهمها الرجل (اللفظ) والمرأة (المعنى) فأقامت بالتالي تَقسِيمًا غير عَادِلٍ بأن نَسَبَت الكتابة إلى الرجل والحكي للمرأة، وكَأَنَّ لِلُّغَةِ أصلا واحدا هو الذكورة، وعلى الرغم من أن الغذامي لاحظ بأنه في السنوات الأخيرة أن المرأة بدأت تقتحم شيئا فشيئا ميدان الكتابة، إلا أنه تَوَقَّعَ بأن لا تكون هذه المهمة سهلة لأن الطابع الذكوري للغة يرفض ذلك، لذا وجب على

المرأة أن تُناضِلَ من أجل أن تُثبِتَ أن اللغة ليست ذكورية فقط وإنما أنثوية كذلك، لِيُتَوِّجَ مقدمة الكتاب بتساؤل رئيس سيحاول الإجابة عنه في فصول الكتاب فيقول: "هل تملك المرأة القدرة على تأنيث اللغة أو أَنْسَنَتِهَا لتكون للجنسين معا، أم أن اللغة قد بَلَغَت منها الفحولة مَبلَغًا لا سبيل إلى مُدافَعَتِهِ؟"[7].

في الفصل الأول والذي عنوانه "الأصل التذكير" يناقش الغذامي مسألة الأصل الذكوري للغة وكيف حاولت النساء من خلال اقتحامهن ميدان الكتابة أن يُثبِتنَ أن اللغة لا ترتبط بالذكورة وحسب وإنما بالأنوثة أيضا؛ لأن المرأة مثل الرجل كائن طبيعي لها مميزاتها وتتمتع بكامل حقوقها، لكن الثقافة واللغة الذكورية حَوَّلَتها إلى موضوع ثقافي فَبَخَسَتهَا أبسط حقوقها، حيث كان الجنس المذكر ولا يزال يمارس ما اسماه الغذامي بـ"الوأد الثقافي" على الجنس المؤنث. والمُلاحَظُ هنا أن الرجل ذاته أصبح خاضعا لهذه الهيمنة لأنه يعيش على هاجس السيطرة وإثبات عُلُوِّ ذكوريته أمام دُنُوِّ أنوثتها، أي أن المرأة لم تصبح هي الضحية الوحيدة وإنما يُعتَبَرُ الرجل في حد ذاته ضحية لهذه الهيمنة التي يريد ممارستها على المرأة، وهي الفكرة التي تحدث عنها بيار بورديو من خلال مناقشته مفهوم الرجولة إذ يقول: " إن الرجولة مقولة علائقية للغاية، شيدت قبالة الرجال الآخرين ومن أجلهم، وضد الأنوثة، على شكل خوف من المؤنث وداخل النفس ذاتها أَوَّلاً"[8]، وذلك من ناحية أن الرجل دائما مُلزَمٌ بالحفاظ والدفاع عن كونه رجلا فالامتياز الذكوري للرجل غالبا ما يكون على حساب أنوثة المرأة، وهو تكليف يتطلب من الرجل جهدا مستمرا في الحفاظ على هذا الامتياز والذي هو رجولته.

لكن ما لاحظه الغذامي أيضا هو أن النساء الكاتبات وهن يدافعن عن أنوثة اللغة، يستعملن الضمير المذكر من حيث لا يشعرن، وهذا ما نجده في كتابات "مي زيادة" مثلا و"نوال السعداوي" و"غادة السمان" وغيرهن، وهذا ما يثبت أن الهيمنة الذكورية اللغوية قد أَحكَمَت سيطرتها على اللغة وعلى المرأة إلى درجة: "أن المرأة أصبحت لا تحسن الكلام عن ذاتها، إلا إذا فَكَّرَت في هذه الذات بوصفها ذكرا"[9]، وكأن المرأة رَضِيَت بأن تكون "مَعنَى" فقط وأن تكون هي الحكي وأن تكون الفرع وبالتالي أن تبقى تحت الهيمنة اللغوية للرجل. وبالعودة إلى اللغة العربية مثلا، فإننا نجد الكثير من الألفاظ التي تدل على ذلك حيث أننا نستخدم الألفاظ التالية للحديث عن المرأة فنقول عنها أنها: مدير ونائب ورئيس قسم وغيرها من التسميات الأخرى، فكل هذه الألفاظ تدل على ذكورية اللغة؛ لأن الرجل هو المعيار في تحديد معنى اللفظ ثم يُوَجِّه المعنى بحيث تكون المرأة تَابِعَةً له.

يَعتَرِضُ الغذامي اعتراضا شديدا على هذه الهيمنة وهذا التمييز المطلق بين المرأة والرجل، أو بالتحديد هذا الإقصاء الكُلِّي للمرأة من اللغة، فمن المفروض أنهما يتساويان في حقوقهما اللغوية ذلك لأن اللغة ثنائية الأصل فهي أنثوية وذكورية، وأن كُلًا من المرأة والرجل قد ساهم في إنتاج اللغة وتوظيفها، إلا أن التَّحَوُّل الذي تَرَتَّبَت عن هيمنة الرجل على المرأة هو ظهور الكتابة: "فالشاهد التاريخي يشير إلى أن الرجل هو سيد الكتابة، ولا يحفظ التاريخ أي أمثلة عن وجود نسوي فاعل مع اللغة المكتوبة، ومن هنا فإن الرجل وَجَّهَ مسار الملفوظ اللغوي نحو وجه خاص تَحَكَّمَ الذكور فيه وخَلَّدُوه عن طريق نقشه وحفره في تاريخ الحضارة، وصار الحضور المذكر هو جوهر

اللغة وتَعَمَّقَتِ الذكورة في اللغة عبر الكتابة حتى صارت وجهها وضميرها"[10]. هكذا كان خروج المرأة من اللغة ومن الكتابة لِتُوَكَلَ لها مهمة ثانوية هي الحكي الذي هو أقل شأنا من الكتابة، وهي الفكرة التي ترجع إلى الحضارات السابقة خصوصا عند اليونانيون عندما نظر متفلسفة اليونان إلى المرأة نظرة دونية واحتقروها وحرموها من أبسط حقوقها بما فيها اللغة، ثم تَكَرَّسَت هذه الفكرة مع الشعر العربي الذي اعتبر المرأة موضوعا لغويا لا ذاتا لغوية، وما ظهور تسمية "الفحل الشعري" إلا دليلا على أن كتابة الشعر اعتُبِرَت صناعة ذكورية لا أنثوية حتى بلغ الحد ببعض الشعراء والفنانين سواء العرب أو الغربيين اتخاذ جسد المرأة موضوعا لكتاباتهم وأعمالهم الفنية فَصُوِّرَ هذا الجسد على أنه ما وُجِدَ إلا من أجل أن يكون موضوع مُتعَةٍ للرجل حتى أصبح التشهير بجسد المرأة حقا من الحقوق اللغوية للرجل، وذلك من منطلق أن الرجل هو العقل وأن المرأة هي الجسد، أن الرجل هو اللفظ وأن المرأة هي المعنى.

لقد اعتبر الغذامي أن الثقافة الإنسانية بصفة عامة هي ثقافة ذكورية سواء الغربية منها أو العربية فهما يشتركان في بسط "الهيمنة الذكورية" على المرأة خصوصا منها "الهيمنة اللغوية"، والى جانب تمييز الثقافة بين الكتابة والحكي، كذلك فإننا نجدها تُبَرِّرُ للهيمنة اللغوية من خلال ثنائية "القلم واللسان" على اعتبار أن القلم صفة ذكورية أما المرأة فسلاحها اللسان: "فإن كان الرجل فَحْلاً فإن الأنثى (فحلة) ولكنها لا تنعم بفحولتها كما يفعل الرجل، إذ أن الفحلة هي سليطة اللسان حسب تحديد القاموس المحيط"[11]. كما تُبَيِّن لنا آراء ومواقف الغذامي من ظاهرة الهيمنة اللغوية أن الثقافة مارست إرهابا منظما ضد المرأة عندما حرمتها من حقها في اللغة، خصوصا عندما ربطت الرجل بالكتابة والمرأة بالحكى، على الرغم من أننا نلاحظ تَوَجُّهَ المرأة اليوم تدريجيا نحو ميدان الكتابة بعد أن ارتبطت لزمن طويل بالحكي، فالمرأة لم تعد تحكي كما تبين لنا ذلك قصص "ألف ليلة وليلة" التي تُحكَي على لسان امرأة هي "شهرزاد"، فلم تعد المرأة تحكي ليستمع الرجل إلى حكاياتها وإنما أصبحت نِدًا له في ميدان الكتابة التي كانت حِكرًا على "القلم" الذكر، ولكن انجاز هذه المهمة كما تَبَيَّنَ للغذامي ليس بالأمر الهين، لأن الكتابة أصبحت مستعمرة ذكورية تَلَبَّسَت بالذكورة لمدة زمنية طويلة تقاس بالقرون، وبالتالي إذا توغلت المرأة في اللغة فإن ذلك سيطون على حساب أنوثتها، وهنا يقول الغذامي: "ستجد المرأة نفسها في تناقض ذاتي بينها كإنسانة وبين التركيب السردي المناهض للأنوثة، ولسوف تضطر المرأة إلى أن تشارك في تجربة ثقافية مَبنِيَّةٍ على إقصاء الأنثى"[12]. هكذا فإن ثقافة "الهيمنة الذكورية" أقصت المرأة من مجال الكتابة لصالح الرجل وبعد أن حاولت المرأة اقتحام هذا المجال ظَنًا منها أنها ستسترد شيئا من حقوقها اللغوية وجدت نفسها تتكلم عن الأنثى بمصطلحات ذكورية وهذا لأن اللغة أصبحت ذات طبيعة ذكورية، فالرجل هو من سيطر على اللغة كتابة وقراءة، فهيمن على اللغة ثم هيمن على المرأة من خلالها بأن حرمها من حقها فيها الذي هو حق طبيعي، وهو وضع ترتب عنه تَحَوُّل المرأة من ذات لغوية إلى موضوع ثقافي لغوي.

أما في الفصل الثاني والذي عنوانه "تدوين الأنوثة" فإننا نجد أن الغذامي قد طبق المنهج التفكيكي أو ما أسماه بالتشريحية على قصص "ألف ليلة وليلة" فتبين له أنه هناك مرحلتين من علاقة المرأة باللغة، يسمي الأولى بمرحلة "ما قبل الكتابة" أما الثانية فيسميها بمرحلة "ما بعد الكتابة". لقد توصل الغذامي من خلال هذا التشريح إلى نتيجة مفادها أن بعض الحكايات على الرغم من أنها تربط المرأة بالحكي إلا أنها أظهرت إمكانية تحكم المرأة في اللغة وبالتالي في الرجل، وذلك لأن الأمير "شهريار" كان منقادا تماما لكل ما تقوله "شهرزاد"، أي لاستخدام الأنثى للغة. لكن السؤال الذي يطرحه الغذامي هنا هو: "هل كانت شهرزاد تحكي فعلا أم أنها مجرد شخصية روائية من صنع رجل تَخَيَّلَ النص وكتبه؟"[13]. وهو سؤال مهم قد تقودنا الإجابة الصحيحة عنه إلى فهم حقيقة العلاقة بين الرجل والمرأة من خلال اللغة.

يؤكد الغذامي على أن نص "ألف ليلة وليلة" قد يكون صناعة نسوية تُظهِرُ أن شهرزاد تدافع عن نفسها ضد الملك الذي يريد قتلها، وبالتالي فهي تدافع عن كل النساء المضطهدات من طرف الرجال وكانت أهم وسيلة ساعدت شهرزاد في الدفاع عن نفسها والتخلص من بطش الملك هي اللغة. ولكن على الرغم من ذلك فإن حكايات "ألف ليلة وليلة" تُظهِرُ لنا أيضا أن المرأة تبقى أدنى من الرجل لأن "شهرزاد" قبل أن تقع في يد الملك كانت سيدة وابنة وزير لكن بعدها أصبحت جارية لدى الملك تروي له القصص، وهذا ما يفهم منه إن شهرزاد (المرأة) لم تَتَّخِذ من اللغة وسيلة لقهر الملك (الرجل) وإنما فقط لتنقذ نفسها منه. هكذا، فإن المرأة كانت مضطهدة من طرف الرجل خصوصا في زمن الحكي وحتى عندما فهمت المرأة أنها تعيش تحت هذا الاضطهاد لم تحاول أن تَرُدَّ على الرجل أو أن تقهره حتى ولو أنها امتلكت أحيانا الوسيلة والتي هي اللغة، وإنما كان أقصى ما قامت به هو أن تُثبِتَ للرجل أنها مستعدة لأن تعيش معه في سلام، أي أنها عملت على إعادة إنتاج الصورة التي رسمتها لها "الثقافة الذكورية" وفقط، وهنا يقول الغذامي: "إن مُبدِعَةَ النص كانت تَعِي تماما شروط الثقافة الذكورية، ولذا فإنها حَقَّقَت درجات عالية من الإمتاع الإبداعي المُوَجَّهِ للرجل فَأَطرَبَت خياله بما يَستَلِذُّهُ من القصص والحكي(...)هذه هي غاية الخطاب الإبداعي النسوي في مرحلة زمن الحكي"[14].

في حين جاء عنوان الفصل الثالث على النحو التالي "الجسد بوصفه قيمة ثقافية" وهو فصل يدرس مسألة على قدر كبير من الأهمية تتمثل في مسألة الجسد الأنثوي باعتباره موضوعا "للهيمنة الذكورية" بواسطة اللغة، إذ بَيَّنَ الغذامي أن حكايات "ألف ليلة وليلة" تُعتَبَرُ فعلا دفاعا عن المرأة ضد الرجل، أو على الأقل مواجهة المرأة ضد الثقافة و"الهيمنة الذكورية"، وحتى ولو كان ذلك على سبيل المجاز اللغوي إلا أنه كما يصفه الغذامي من أفعال "التعرية للثقافية الذكورية"؛ إذ يستشهد الغذامي بإحدى قصص "ألف ليلة وليلة" وهي القصة التي حَكَتهَا شهرزاد للملك من أن جارية اسمها "تَوَحُّد" تَفَوَّقَت على كل الرجال الفلاسفة والأدباء والمُنَجِّمِين، حيث أجابت على كل أسئلتهم في حضرة الملك الذي ضحك عليهم جميعا، وهنا يُعَقِّبُ الغذامي على القصة قائلا: "وإن

كانت الحكاية لم تحقق ثقافة نسائية ذاتية ولم تَبتَكِر لغة أنثوية خاصة، إلا أن المرأة هنا أحدثت مُفارَقَتَها الأولى حيث سرقت سلاح الرجل (ثقافته) لِتُحارِبَهَ بما هو من أدواته ومُبتَكَرَاتِهِ فتنتصر عليه بسلاحه"[15].

لكن، سرعان ما يظهر أن هذا الانتصار من طرف الجارية على الرجال ما هو إلا انتصار مؤقت لا ينفك ينفصل عن ظاهرة "الهيمنة الذكورية" كما أن المرأة الجارية حتى ولو أنها تَمَكَّنَت من التَّفَوُّقِ على الرجال، إلا أنها لا تمتلك ثقافة أنثوية نسوية وإنما ثقافة ذكورية، وهي الثقافة التي تنظر إلى المرأة على أنها جارية وأن ثقافتها ثقافة جارية، ناهيك عن ارتباط ثقافة المرأة بالجسد الأنثوي، فالقصة تذكر أن الجارية كانت فائقة الجمال أي أنها اتخذت من جسدها وسيلة لقهر الرجال، وهو من الأسباب التي جعلت أولئك الرجال العلماء ينهزمون أمامها نتيجة انبهارهم الشديد بمفاتن جسدها، كما أنها أرادت عن قصد إظهار تلك المفاتن أمام الرجال لأنها تعرف أن الرجل يميل ميلا إلى جسد المرأة، وبالتالي فهي كانت منقادة وراء هذه الثقافة الذكورية: "ذلك أن إجابات الجارية هي ثقافة الرجل وعلومه حَفِظَتها الجارية وأعادت إنتاجها، مثال على ذلك جوابها عن سؤال الحكيم عن (الجماع) حيث رَدَّت الجارية بجواب طويل يَصِفُ حالات الجماع وأحسن أوقاته وفوائده ومَضَارِّه وهي معرفة لا تصدر عن فتاة غَضَّةٍ لما تزل في بواكير عمرها، بينما الحديث عن الجماع هو حديث الخبرة والسنين وطول التجارب، وهو أشبه بثقافة الرجل المُسِن أو الحكيم منه بذكاء الفتاة اليافعة"[16]. هكذا، فإن قصة الجارية حتى ولو أنها أظهرت تَفَوُّقَ المرأة على الرجال، إلا أن المرأة لا زالت تؤدي وظيفة الحكي فقط لا الكتابة التي هي وظيفة ذكورية، كما أن ثقافتها هي ثقافة ذكورية تَعتَبِرُ المرأة جارية والرجل سيدا، لتنتصر في النهاية ثقافة الفحل على ثقافة الجارية.

يواصل الغذامي في الفصل الرابع الحديث عن علاقة المرأة بالرجل من خلال اللغة حيث أن عنوان هذا الفصل هو "احتلال اللغة، غزو مدينة الرجال" بَيَّنَ الغذامي فيه كيف أن اللغة كانت تاريخيا وسيلة في يد الرجل من أجل قهر المرأة، فقد حرمها منها ولم يعترف بها كحق من حقوقها، ويؤكد الغذامي أن حرمان المرأة من الكتابة تاريخيا صاغه خير الدين نعمان بن أبي الثناء، في كتابه "الإصابة في منع النساء من الكتابة" وهنا يقول الغذامي: "هذا الكلام ليس سوى رقية سحرية لتحصين مملكة الرجل اللغوية ودفع المرأة عنها لكي تظل الكتابة احتكارا ذكوريا، وهي للرجل زينة تُجَمِّلُهُ وترفع من قدره مثلما أنها حق طبيعي، أما الكتابة بالنسبة إلى المرأة فإنها مثل السيف بيد المجنون والخمرة بيد السكير. إن المرأة والكتابة ثنائي خَطِرٌ ولابُدَّ للرجل أن يحترس من هذا الشر المحتمل؛ وذلك بمنع المرأة من تعلم الكتابة"[17].

لكن المرأة بدأت تدرك أنها حُرِمَت من هذا الحق وهي تعمل جاهدة من أجل استعادته، وإن كانت لم تصل بعد إلى التمكن من الوسيلة الأقوى والتي هي الكتابة أو النص المكتوب، الذي كان ولا يزال تابعا للمؤسسة الذكورية. وحتى ولو أننا بدأنا نشهد في السنوات الأخيرة اقتحام المرأة لهذا الميدان الذكوري، حيث حاولت أن تثبت أن المرأة لا تحكي فقط وإنما يمكنها ممارسة الكتابة مثل الرجل بل وأفضل منه. لكن الغذامي يتساءل هنا

قائلا: "ماذا حدث –أو سيحدث– من تحولها هذا؟(...)هل ترانا سنشهد عصرا جديدا تُغَيِّرُ فيه المرأة اللغة عَمَّا عهدناه عن اللغة من فحولة ذكورية؟"[18].

لقد آمن الغذامي بأن طريق المرأة نحو استرداد حقوقها اللغوية المهضومة من طرف الرجل طريق طويل وشاق جدا، ولكي تُحَقِّقَ هذا الهدف وَجَبَ عليها تقديم الكثير من التضحيات على الرغم من أنها قَدَّمَت ولا تزال، إذ يَكمُنُ الحل في جعل الأنوثة قادرة على منافسة الفحولة في ميدان الكتابة لكن بشرط أن تكتب المرأة بأنوثتها لا بألفاظ ذكورية فَتُبدِعَ مُصطلحًا أُنثوِيًا خاصا بها مُقابِلًا للمصطلح الذكوري، ذلك هو السبيل الوحيد الذي قد يجعل المرأة تَستَرِدُّ حَقَّهَا في اللغة الذي وُلِدَ معها وضاع مع الهيمنة اللغوية التي فرضتها الثقافة على المرأة.

أما بالنسبة إلى الفصل الخامس فإن عنوانه "من ليل الحكي إلى نهار اللغة، تأنيث المكان"، وفي هذا الفصل يدافع الغذامي بشدة عن حق المرأة في اللغة وفي الكتابة مستشهدا بأمثلة كثيرة حول النساء الكاتبات من أمثال "مي زياده" و"غادة السمان" وغيرهما، مؤكدا سعي المرأة الكاتبة الدخول إلى اللغة لأنها ظلت مدة زمنية طويلة خارجها، وهو تَحَوُّلٌ مُهِمٌ في تاريخ العلاقة بين المرأة واللغة حدث تحديدا في بداية القرن العشرين، مع ظهور الكثير من البوادر التي تَرَتَّبَ عنها تَغَيُّرٌ في الكثير من المفاهيم والثنائيات حيث يقول الغذامي عن هذا الوضع الجديد: "تجيء المرأة الآن لتخطف القلم من بين يدي الرجل ولِتَدخُلَ إلى اللغة بوصفها كاتبة ومؤلفة، وبوصفها صوتا مستقلا وبوصفها (ذاتا) تنشئ وتبدع ولم تعد مجرد موضوع لغوي أو رمزي أو شعري أو أداة سردية، إنها تجيء بوصفها (سيدة) وليست (جارية) وسلاحها في القلم وليس في لسانها"[19]. لقد اقتحمت المرأة مجال الكتابة بعد إقصاء ويبقى هذا المجال غريبا عنها غامضا بالنسبة إليها لأنها لم تَخْبَرْهُ من قبل، كما أن القلم فَحْلٌ وهو ملكية خاصة بالرجل لن يكون بمقدور المرأة أن تجعله أنثويا بالبساطة التي تَصَوَّرَهَا بعض الكاتبات آنذاك، لأن المرأة ارتبطت لمدة زمنية طويلة بالحكي، وما دخول المرأة ميدان الكتابة إلا دخول في مواجهة مباشرة مع الرجل، أي مواجهة الأنوثة مع الذكورة، فالرجل احتكر القلم ولا يمكنه التنازل عنه بهذه السهولة للمرأة، فقد وُصِفَت المرأة من طرف ثقافة "الهيمنة الذكورية" عندما اقتحمت مجال الكتابة بأنها مُتَطَفِّلَةٌ على اعتبار أن العِلمَ ليس من اختصاصات المرأة وغيرها من الاتهامات التي كَالَهَا الرجل للمرأة، وهي اتهامات يبتغي منها الرجل حِرمان المرأة من حقها في اللغة، وبالتالي تكريس هيمنته على اللغة وعلى المرأة في حد ذاتها.

يتساءل الغذامي في بداية الفصل السادس والذي عنوانه "المرأة ضد أنوثتها" قائلا: "هل بِيَدِ المرأة أن تجمع بين أنوثتها ومِهنَةِ الكتابة (أي مهنة الرجل)؟ هل ستحتفظ بشروط نِسوِيَّتِها وتَتَّصِفُ مع هذا بصفة رجولية (الكتابة)؟"[20]. لقد تَبَيَّنَ للغذامي أن لُجُوءَ المرأة إلى الكتابة لم يكن دفاعا عن أنوثتها، وإنما كان انغماسا في الأنموذج الذكوري مثلما حدث لها في مرحلة الحكي، والمرأة الكاتبة تدرك ذلك تماما لأن القلم ذكوري من النواحي الثقافية واللغوية، وهذا ما لاحظه الغذامي على مؤلفات أهم النساء الكاتبات المعاصرات.

لقد كان خطاب النساء الكاتبات كما يبين لنا الغذامي ضد أنوثتهن إلى درجة أن البعض منهن أصبحن يَكتُبنَ ضد المرأة، وتفسير ذلك راجع إلى الهيمنة "الثقافية الذكورية" على المرأة ولذهنية أن المرأة أدنى من الرجل وأقل شأنا منه، ويجب عليها أن تفعل أي شيء لِتُرضِيهِ حتى وهي تدافع عن نفسها بالكتابة، حيث كانت المرأة ولا تزال تَتَّخِذُ من الرجل مَثَلَهَا الأعلى ولا تَتَرَدَّدُ في تنصيب العداء لِقَرِينَتِهَا المرأة لأجل الرجل، وهذا ما جعل من الأنموذج النسوي فَرِدِيًا لا يَقدِرُ على مواجهة الأنموذج الذكوري الجماعي.

أما الفصل السابع فَعَنوَنَهُ الغذامي بـ"الخراب الجميل، تَستَرِدُّ اللغة أنوثتها" تحدث فيه أولا عن كون أن ثقافة "الهيمنة الذكورية" تُبَيِّنُ لنا أن المرأة كانت وستبقى مسجونة داخل اللغة، إذ لطالما لَجَأَت المرأة إلى الكثير من حِيَلِ الفِرارِ من هذا السجن دون أن تَفلَحَ في ذلك. لكن رغم هذا الفشل المتكرر فإن المرأة تبقى تحاول تجاوز هذا الاحتكار الذكوري الفحولي للغة بأن تَضَعَ أنوثة اللغة كقيمة مقابلة تماما لذكوريتها، وهنا يُقِرُّ الغذامي بأنه ليست هناك رواية نَجَحَت إلى أبعد الحدود في أداء هذه المهمة مثل رواية "ذاكرة الجسد"[21] للروائية الجزائرية أحلام مستغانمي وهذا ما يؤكده في قوله: "لقد سعت هذه الروائية إلى تخليص اللغة من فحولتها التاريخية، حيث أخذت بمهمة تفكيك الفحولة وتكسيرها، وفي الوقت نفسه راحت اللغة تكتب نفسها وتنقش صورتها على الورق بوصفها أنثى تتكلم بلسان المرأة وتكتب بقلم المرأة فتسترد بذلك اللغة أنوثتها التي سُرِقَت منها، وتَتَخَلَّصُ من المستعمر الفحل الذي احتل المساحة وتحكم بفعل الكتابة وفعل القراءة وفعل التأويل، وهي أفعال كانت جميعها من حق الرجل ومن مُحتَكَرَاتِهِ"[22].

لقد حاول الغذامي أن ينصح المرأة بأنها إذا أرادت أن تسترجع حقها في اللغة يجب عليها أن تكتب، ولكي تكتب يجب عليها أن تُعَبِّر عن أنوثتها لا أن تكون مُستَرجِلَةً فتعمل بالتالي على تكريس "الهيمنة الذكورية" وفحولية اللغة التي حاولت تجاوزها. أي أن الرسالة التي أراد الغذامي إيصالها إلى المرأة الكاتبة فهي أنها إذا أرادت أن تتحرر من قَيدِ الفحولة يجب عليها أن تعرف كيف تُعَبِّرُ عن أنوثتها، أي أن تُعَبِّرَ عن الأنوثة بأنوثتها لا أن تُعَبِّرَ عنها بالفحولة، وهذا ما سَهَّلَ المهمة على الرجل وضاعف من غياب المرأة عن اللغة، لذلك وجب على المرأة خصوصا المرأة الكاتبة أن تنشر الوعي في أوساط النساء بحقها في اللغة والكتابة حتى تَستَرِدَّ اللغة أنوثتها الضائعة.

أما الفصل الثامن وهو الفصل الأخير من هذا الكتاب، فعنوانه "تأنيث الذاكرة" فَيُعتَبَرُ تَتِمَّةً لما ذكره الغذامي في الفصول السابقة، بعد أن أَكَّدَ على ضرورة تأنيث المرأة للغة واستعادة حقها في الكتابة إذ نجده يؤكد على أن نجاحها في تحقيق هذا الهدف يجب أن يَمُرَّ على ما أسماه بـ"تأنيث الذاكرة" لأن الذاكرة أصبحت مشحونة بالذكورة والفحولة، فالرجل هو من صَنَعَ تاريخ اللغة وأعطى ألفاظ اللغة معاني ذكورية، وبالتالي إذا أرادت المرأة أن تساهم في حاضر اللغة يجب عليها تأنيث تاريخ اللغة: "ومن إدراك المرأة الكاتبة لهذا المُعضِل الإبداعي، راحت تحتال لِكَسرِ الطَّوقِ الذكوري المضروب على اللغة وراحت تسعى إلى (تأنيث الذاكرة) لأنه ما لم تَتَأَنَّث الذاكرة فاللغة ستظل رجلا ولن تجد المرأة مكانا في خَزَّانِ اللغة المُكتَنِزِ بالرجال والفحولة"[23]. ولن يتأتى ذلك إلا إذا تحدثت

الكاتبات عن المرأة بصفة المجموع لا بصفة الفرد، وأن تَعمضلنَ ثانيا –وهذا ما لا يقل أهمية– على التَّحَكُّمِ في اللفظ فَتُحَوِّلَهُ من ثقافة الحكي إلى ثقافة الكتابة، وتصبح اللغة مجالا مفتوحا لكل من المرأة والرجل دون أن يحتكرها أحد الطرفين.

4– رؤية نقدية لمضمون الكتاب.

بعد دراستنا لمضمون كتاب "المرأة واللغة" ومعرفتنا لأهم الأفكار التي طرحها الغذامي فيه والمنهج الذي اتبعه في ذلك نتساءل: هل احتوى الغذامي موضوعة "الهيمنة اللغوية" في كتابه "المرأة واللغة"؟ إلى أي حد يمكننا أن نعتبر أن هذا الكتاب هو دفاع عن المرأة ضد الرجل وعن حقها في اللغة؟ بل هل يمكن القول مع الغذامي أن الرجل سلب المرأة هذا الحق أصلا؟ ثم هل وُفِّقَ الغذامي في الإجابة عن التساؤلات التي طرحها في كتابه؟

ما يَفَهُمُه القارئ من كتاب "المرأة واللغة" وهو ينتقل من فصل إلى آخر أن الغذامي يدافع عن النساء ضد ظلم الرجال وقهر المنظومة الثقافية التي مَيَّزَت حسب رأيه بين ثنائية الرجل والمرأة ووضعته في مرتبة أعلى منها، لكن يتبين لنا أن الغذامي يبالغ كثيرا في تأكيد صحة هذا الطرح إلى درجة أنه يتهم كل الرجال دون استثناء بأنهم ساهموا في هذا الظلم وكانوا راضين عنه، ولم يذكر أبدا في كتابه أنه من الرجال مثلا من رفض حرمان المرأة من حقها في اللغة، لذلك فإننا نجد الغذامي دائما لا يستشهد إلا بالنصوص والأقوال التي تخدم الفكرة التي يريد هو التعبير عنها ويؤمن بصحتها، وإن كنا لا ننكر صحة بعض ما ذكره، لكن الخطأ الذي وقع فيه هو أنه اتخذ من بعض الأقوال والمواقف لدى بعض الرجال خصوصا الكُتَّاب ليثبت فكرة أن "الهيمنة اللغوية" تطغى على الثقافة العربية في كل المراحل، وأن كل الرجال قهروا المرأة وتسلطوا عليها من خلال اللغة، لذاك يتفاجئ قارئ الكتاب فيتساءل هل فعلا أنه لا توجد أقوال لرجال دافعوا عن حق المرأة في اللغة والكتابة؟ سواء قديما أو في الفترة المعاصرة إلى درجة أن الغذامي لا يستطيع أن يستشهد على ذلك ولو بقول واحد؟ خصوصا ونحن نعرف أن تاريخ الثقافة العربية يبين لنا أن هناك الكثير من النساء اللواتي ساهمن في كل مجالات العلوم والفن والشعر وحتى في ميدان الحرب.

لقد تبين لنا أن كتاب "المرأة واللغة" يحمل الكثير من العبارات المناقضة والتي تثبت لنا أن الغذامي إما أنه غير مقتنع بما يكتب أو أنه يعجز عن إثبات صحته، فمن أكبر تناقضاته في هذا الكتاب هو تأكيده من جهة على أن اللغة ذكورية وأن الرجل حَرَمَ المرأة من حقها في اللغة، ولكننا نجده من جهة أخرى يقول: "كانت اللغة في الأصل أنثى، وضاعت هذه الأنوثة بعد احتلال الرجل لعالم اللغة وتحول الأصل الأنثوي ليكون ذكوريا"[24]. وما لاحظناه هنا هو أن الغذامي لا يقدم دليلا على صحة هذا الكلام الذي يوحي بأن اللغة كانت أنثوية ثم أصبحت ذكورية،

لأن السؤال الذي يطرح حول هذا الكلام هو كيف ومتى حدث هذا التحول من الأصل الأنثوي للغة إلى أن أصبحت ذكورية؟

لقد تحدث الغذامي في كتابه مطولا عن رواية "ألف ليلة وليلة"، وإن أكبر تناقضاته كانت حولها فهو يتحدث عنها أحيانا باعتبارها تكريسا للهيمنة اللغوية من طرف الرجل على المرأة لأنه أَوكَلَ لها أداء مهمة الحكي فقط واحتفظ لنفسه بمهمة الكتابة، ولكنه يؤكد في المقابل من خلال تفكيكه لبعض القصص التي سردتها شهرزاد على أن قدرة شهرزاد على إقناع الملك راجعة إلى تَحَكُّمِها في اللغة وأن نص "ألف ليلة وليلة" نص لغوي أنثوي خالص. وعليه يمكننا التأكيد هنا على أنه إذا كان هذا النص تأليفا أنثويا فهذا يعني أن المرأة كان لها نصيب من الكتابة في المرحلة التي وصفها الغذامي بأنها مرحلة الحكي. كما اتضح لنا أن الغذامي كثيرا ما يستخدم عبارات تناقض بعضها إذ نجده مثلا يَذُمُّ قتل الملك شهريار للنساء وذلك في قوله: "لقد كان فعل شهريار يُهَدِّدُ نظام العائلة ونظام البناء الطبيعي بين البشر، حتى لقد خَلَتْ المدينة من العذارى، وتَمَّ تهديد الجنس النِّسوِي بالإنقراض"[25]. لكننا نجده بالمقابل لا يتواني في مَدحِ قتل النساء لكل مولود ذكر وذلك في قوله: "فإذا وضعت إحداهن ذكرا قَتَلَتهُ في الحال، وإذا وضعت أنثى تركتها"[26].

يمكننا تصنيف أفكار ومنهج عبد الله الغذامي بأنها ما-بعد حداثية، لأنها تقوم على نفس المبادئ التي يقوم عليها فكر ما-بعد الحداثة الغربية؛ والتي أهمها تجاوز المركز والاهتمام بالهامش بربط جسور التواصل معه، وهذا ما يتجلى في موقف الغذامي من الرجل (المركز) والمرأة (الهامش) وإن ما يحسب له هنا هو تأكيده على ثنائية مصدر اللغة التي هي ذكورية وأنثوية، لكن ما يحسب عليه هو مبالغته في دعوته إلى إرجاع اللغة إلى الأنوثة بالتالي تصبح المرأة هي المركز والرجل هو الهامش وعليه يكون الغذامي قد وقع فيما أراد تجاوزه وهو إعطاء الأولوية لأحد الطرفين على الآخر، فالغذامي بالغ في ذم الرجل ومدح النساء إلى درجة أنه وقع في التَّطَرُّف الذي وقعت فيه الكثير من التوجهات الفكرية الغربية المعاصرة، خصوصا ما يسمى بـ"النسوية الراديكالية" التي بلغ بها الأمر في الدفاع عن حقوق المرأة إلى حد الدعوة إلى قطع الصلة تماما مع الرجال. لذا يبدوا لنا أن الأفكار التي يدافع عنها الغذامي في كتابه "المرأة واللغة" هي أفكار غربية لا علاقة لها بالثقافة العربية الإسلامية، حيث قام الغذامي بإسقاط أفكار ومفاهيم الثقافة الغربية على الثقافة العربية وفق منهج غربي لا يتناسب مع خصائص ومميزات ثقافتنا.

5- خاتمة

يمكنا التأكيد ختاما على أن كتاب المرأة واللغة لعبد الله الغذامي يعتبر كتابا مميزا جدا لكونه طرح قضية جديدة وراهنة تتمثل في حرمان المرأة من حقها في اللغة، وعلى الرغم من أن الظاهرة قديمة جدا ترجع إلى مراحل زمنية سابقة تقاس بالقرون إلا أن تسليط الضوء عليها لم يكن إلا في الفترة المعاصرة خصوصا مع ظهور النقد الثقافي في الفكر الغربي كآلية لنقد الثقافة وفضح أساليبها وألاعيبها التي تستعملها في تمرير بعض الأفكار والتصورات مستعينة في ذلك بالمؤسسات الاجتماعية، حيث أن ما يحسب لعبد الله الغذامي هو أنه عمل على

تطبيق هذه الآلية النقدية على الثقافة العربية من خلال نقد ظاهرة الهيمنة الذكورية على المرأة في مجال اللغة والكتابة.

لقد تبين لنا من خلال قراءتها التحليلية والنقدية لكتاب "المرأة واللغة" لعبد الله الغذامي أن الثقافة العربية بالإضافة إلى تهميشها للمرأة من أغلب مجالات الحياة، فإنها عملت على تهمشيها وإقصاءها من مجال اللغة وتحديدا الكتابة فاعتبرت أن المرأة ما وُجدت إلا للحكي وفقط، أما الكتابة فهي اختصاص ذكوري وليس من حق المرأة أن تكتب. لكن المرأة لم تسكت عن حقها وأرادت أن تسترده من خلال اقتحامها مجال الكتابة وهذا ما أدى إلى ظهور "الكتابة النسوية" خصوصا في مجال الأدب، حيث حاول الكاتبات أن يصطنعن لأنفسهن لغة يُعَبِّرنَ من خلالها عن أنوثتهن، لكن هذه المهمة لم تكن سهلة لأنهن وَجدنَ أن اللغة أصبحت ذكورية حتى أن النساء الكاتبات أصبحت يُعَبِّرنَ عن أنوثتهن بمصطلحات ذكورية.

يسعى كتاب "المرأة واللغة" لعبد الله الغذامي إلى التأكيد على أن اللغة لا يجب أن تبقى حكرا على الرجل وإنما يجب إتاحة الفرصة أمام المرأة لكي تأخذ نصيبها وحقها الطبيعي منها؛ وذلك من خلال السماح لها بأن تكتب وهذا ما سيكون في صالح المرأة والرجل وحتى اللغة كذلك.

6- الهوامش:

[1]- ارتبط ظهور "النقد الثقافي" كنمط جديد في التفكير بما-بعد الحداثة، بالتالي فهو يُعَبِّرُ عن نهاية مرحلة الحداثة وتجاوز مبادئها ومنه التَّحَوُّل من المركز إلى الهامش ومن الثابت إلى المتغير ومن الأنا إلى الآخر، وغيرها من التحولات الأخرى. ويتحدث الغذامي عن ظهور حركة "النقد الثقافي" في أوروبا في كتابه الرئيس "النقد الثقافي" قائلا: "تُغَطِّي الدراسات الثقافية مساحة عريضة من الاهتمام اليوم، وقد حَظِيَت بِشُيُوعٍ واسعٍ في التِّسعينات مع أنه قد ابتدأت منذ عام 1964 كبداية رسمية منذ أن تَأَسَّسَت مجموعة "بيرمينغهام" تحت مسمى Birmingham Center for Contemporary Cultural studies "مركز بيرمينغهام للدراسات الثقافية المعاصرة" ومر المركز بتطورات وتحولات عديدة إلى أن انتشرت عدوى الاهتمام النقدي الثقافي مُتَصَاحِبَةً مع النظريات النقدية النصوصية والألسنية وتَحَوُّلاتِ ما-بعد البنيوية، لتتشكل من ذلك تيارات نقدية متنوعة المبادئ والاهتمامات، ولكن العامل المشترك بينها كلها هو توظيف المقولات النظرية في نقد الخطاب". عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، ط3، الدار البيضاء، المغرب، 2005، ص 19

[2]- خَلَّفَتْ الفلسفة النسوية عن محاولات عميقة للإجابة عن التساؤلات الأولية جدا للنسوية بشأن المساواة وهوية المرأة والتراتبية الهرمية للجنوسة والجنسانية Sexim فالجنسانية أو التَّحَيُّز الجنسي تعني هيمنة أحد الجنسين والتحيز له في سائر الأبنية والمؤسسات، فقط بسبب جنسه، وغالبا ما يكون هذا التحيز لصالح الذكور، بالتالي فالفلسفة النسوية تُمارِسُ النقد من أجل معرفة العوامل التي أَدَّت إلى تهميش المرأة. يمنى طريف الخولي، النسوية وفلسفة العلم، الهيئة العامة قصور الثقافة، القاهرة، 2014، ص 76.

[3]- عبد الرحمان إسماعيل، من هو الغذامي؟، ضمن كتاب "الغذامي الناقد، قراءات في مشروع الغذامي النقدي"، تقديم عبد الرحمان بن إسماعيل، مؤسسة اليمامة الرياض، 2001، ص 8.

[4]– ادريس بلمليح، الرؤية والمنهج لدى الغذامي، ضمن كتاب "الغذامي الناقد، قراءات في مشروع الغذامي النقدي"، ص 17.

[5]– عبد الله الغذامي، الموقف من الحداثة ومسائل أخرى، ط2، الرياض، 1991، ص 15.

[6]– عبد الله الغذامي، ثقافة الأسئلة، مقالات في النقد والنظرية، ط2، دار سعاد الصباح، الكويت، 1993، ص 108.

[7]– عبد الله الغذامي، المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، ط3، المغرب، 2006، ص 11.

[8]– بيار بورديو، الهيمنة الذكورية، ترجمة سليمان قعفراني، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009، ص 86.

[9]– عبد الله الغذامي، المرأة واللغة، المصدر السابق، ص 20.

[10]– عبد الله الغذامي، المرأة واللغة، المصدر السابق، ص 27.

[11]– عبد الله الغذامي، المرأة واللغة، المصدر السابق، ص 38.

[12]– المصدر نفسه، ص 48.

[13]– عبد الله الغذامي، المرأة واللغة، المصدر السابق، ص 59.

[14]– المصدر نفسه، ص 83.

[15]– عبد الله الغذامي، المرأة واللغة، المصدر السابق، ص 93.

[16]– المصدر نفسه، ص 104.

[17]– عبد الله الغذامي، المرأة واللغة، المصدر السابق، ص 112.

[18]– المصدر نفسه، ص 126.

[19]– عبد الله الغذامي، المرأة واللغة، المصدر السابق، ص 129.

[20]– المصدر نفسه، ص 158.

[21]– تقول أحلام مستغانمي في ذاكرة الجسد عن اللغة وتحديدا عن الكتابة: "هل الورق مطفأة للذاكرة؟ نترك فوقه كل مرة رماد سيجارة الحنين الأخيرة وبقايا الخيبة الأخيرة. من منا يطفئ أو يشعل الآخر؟ لا أدري..فقبلك لم أكتب شيئا يستحق الذكر..معك فقط سأبدأ الكتابة ولابد أن أعثر أخيرا على الكلمات التي سأنكتب بها، فمن حقي أن أختار اليوم كيف أَنكَتِبُ، أنا الذي أختر تلك القصة". أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، دار الآداب، ط23، بيروت، (د.ت)، ص 03.

[22]– عبد الله الغذامي، المرأة واللغة، المصدر السابق، ص 181.

[23]– عبد الله الغذامي، المرأة والغة، المصدر السابق، ص 208.

[24]– عبد الله الغذامي، المرأة واللغة، المصدر السابق، ص 181.

[25]– المصدر نفسه، ص 72.

[26]– المصدر نفسه، ص 113.

7. قائمة المصادر والمراجع:

– المصادر:

– عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، ط3، الدار البيضاء، المغرب، 2005.

– عبد الله الغذامي، الموقف من الحداثة ومسائل أخرى، ط2، الرياض، 1991.

– عبد الله الغذامي، ثقافة الأسئلة، مقالات في النقد والنظرية، ط2، دار سعاد الصباح، الكويت، 1993، ص 108.

- عبد الله الغذامي، المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، ط3، المغرب، 2006.

- المراجع:

- يمنى طريف الخولي، النسوية وفلسفة العلم، الهيئة العامة قصور الثقافة، القاهرة، 2014.
- مجموعة مؤلفين، "الغذامي الناقد، قراءات في مشروع الغذامي النقدي"، تقديم عبد الرحمان بن إسماعيل، مؤسسة اليمامة الرياض، 2001.
- بيار بورديو، الهيمنة الذكورية، ترجمة سليمان قعفراني، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009.
- أحلام مستغانمي، ذاكرة الجسد، دار الآداب، ط23، بيروت، (د.ت).